صحائف مطوية :

١ ـ من أخلاق البحتري

علاقته بالخلفاء

للاستاذ محمد رجب البيومى

لأبي عبادة البحتري عند أدباء العربية مكانة رفيعة لا يتطلع إليها أبعد الناس أملا فى نباهة الذكر ، واستفاضة الشهرة ، فهو أحد الثلاثة الذين رزقوا من الحظوة والذيوع ما جلجل صداه فى كل زمان ، على أن الوليد أعمقهم تأثيراً وأكثرهم أنصاراً ، نظراً لديباجته الناصعة ، وسلاسته المترقرقة ، ووضوح معانيه وضوحا يصل بها إلى أعماق القلوب بمجرد النظرة الأولى ، ولا كذلك أبو تمام والمتنبي ، فالأول مغرق فى الغموض والالتواء ، والثانى مولع بمخالفة أهواء الناس ، وحسبك أن يقول أبو العلاء — وهو أبعد الناس عن مذهب الوليد — « أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشاعر البحتري » !

ولقد تناول شعره بالنقد والتحليل طائفة ممتازة من أرباب الأقلام الناضجة فقالوا فيه ماشاء لهم تفكيرهم واستنتاجهم ، فمن متعصب له كالآمدى ، ومن متعصب عليه كالصولى ، ومن متجرد عن الميول والأهواء كابن الأثير ، ومهما يكن من شيء فقد خرج الأدب من هذا التطاحن المحمود بثروة كبيرة تعتز بها المكتبة العربية على ممر الأحقاب . وإن من الغريب أن يغفل هؤلاء جميعاً عن دراسة أخلاق البحترى دراسة تبرزه على حقيقته أمام الجمهور ، اللهم إلا شذرات يسيرة فى مختلف الأسفار لا تشبع نهمة راغب فى البحث ، آمل فى الوصول إلى نتيجة واضحة يفهم على ضوئها شعر البحترى كما يجب أن يكون الفهم والاستنتاج !

على أنى آسف كل الأسف لهذه الحقيقة المؤلمة التى اهتديت إليها بعد بحث جهيد ، والتى تصور لنا البحترى خبيث الطبع ، لئيم المكسر ، ملتهب الحقد ، وهذا يتجلى بوضوح تام فى مختلف علاقاته بالناس من خلفاء وشعراء وأصدقاء ، بل فى علاقته بأقاربه وأهل بيته وهم أولى الناس بعطفه وإشفاقه ، لو كان فى قلب الوليد إثارة من عطف وإشفاق !

ونظرة واحدة إلى ديوانه تريك العجب العاجب من وقاحته

أو إذا ذهب عنى لابتعادى عن مثيراته شعرت بأنى فى حالة عادية لا يشوبها أى كدر ، ولكن ما بالى لم أشعر بشيء من قبل ولا من بعد ؟ أم أنا يوم فحصنى طبيب الشركة وقاس ضغطى لأول مرة كنت متغير المزاج لأى سبب بأن وقع لى قبيل الفحص ما جعل مشير المقياس يرتفع إلى رقم ما كان يبلغه لو كنت فى حالة عادية ، ثم استقرت الفكرة فى نفسى بعد ذلك بحيث يسبب الشعور بها عند كل مناسبة ارتفاعاً فى الضغط ؟ وعلى ذلك أستطيع أن أفرض أن كثيراً من الناس أصيب به عند ماشاهدت عيناه القماش الأسود يلف على ذراعه لأول مرة ، وصارت رؤيته بعد ذلك تبعث الوساوس وتجلب الأكدار .

ولا أعنى بالوصول إلى نتيجة حاسمة فى ذلك ، فلاسبيل إليها أولا ، لعدم الانسجام بين راحة بالى وبين مقياس الضغط . والأمر الثانى الذى يصرفنى عن تحقق وجود ارتفاع الضغط هو أنى عرفت أن أوفق شيء لى أن أحيا حياة صحية عادية ، لا أتكلف فيها تناول شيء أو تجنب آخر مادمت فى حدود القانون الصحى العام ، وأننى عند ما أعمد إلى العلاج أرانى أتداوى « بالتى كانت هى الداء[1] » على فرق ما بينى وبين أبى نواس من اللذة والألم والنشوة والحسرة ، ومن أن كأسه تداوى والذى كنت فيه يداوى[2] .

وبعد ، فهذه قصتى مع ضغط الدم ، سقتها هنا بدافع الرغبة فى التعبير الأدبى عن تجارب تضمنت أحاسيس وانفعالات ، ولعل فيها إلى ذلك مادة تنفع من وقع فى مثل ما وقعت فيه ، أو تعصم من يوشك أن يقع ، أو تحمل العبرة إلى من يعتبر من بعيد .

عباس حسان خضر

---

(١) من بيت أبى نواس المشهور فى الخمر :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء

(٢) يصيب بالداء .

وغدره فهو يمدح الرجل ويذمه مرات عديدة لا لأنه يستحق المدح أو الذم مثلا، فذلك مقبول ، بل لأنه جاد له بالمال فمدحه ثم أبطأ قليلا فى سيبه فأقذع فى هجوه ، غير متذكر ما طوق به جيده قبل ذلك ، بل لقد وصل به التنكر والجحود إلى أن جعل شعره محلا تجاريا يأخذ منه ما يلزمه لإبان حاجته فهو — كما يقول صاحب الموشح — يمدح الإنسان بتحفة خالدة من رائع الشعر ثم يعرض له بعد تناسل الأيام أن يمدح محسنا آخر فيدفعه لؤمه إلى أن يعمد إلى شعره الذى قاله فى الممدوح الأول فيغير ما يحتاج إلى تغيير من الأسماء والألقاب ثم يسوق القصيدة برمتها إلى الممدوح الثانى ، وهذه طريقة مقيتة وقع فيها المتنبى أيضاً فقد مدح أبا الفضل وزير كافور الأخشيد بقصيدة :

بأبى هواك صبرت أم لم تصبرا

وكان منها :

صغت السوار لأى كف بشرت بابن الفرات وأى عبد كبرا

ولما لم يثبه أبو الفضل عليها صرفها عنه وتحول إلى ابن العميد فمدحه بها بعد أن غير كلمة ابن الفرات بابن العميد ثم أردفها بزيادة يسيرة تتضمن جانباً من أوصاف ابن العميد[1] ... !وإذا كان المتنبى قد وقع فى ذلك مرة واحدة فقد كان البحترى غارقا فى هذه العادة إلى أذنه ، حتى أنه كرر هذه الجريمة الأدبية إحدى وعشرين مرة[2] وكأن الله عز وجل أراد أن يكشفه للناس على حالته ، فبالرغم من تحفظ ولده أبى الغوث عن الوقوع فيما يدل على ذلك حين جمع ديوان والده فقد ذكر له قصيدتين متشابهتين فى أكثر الأبيات فأنت تقرأ اللامية التى مدح بها المتوكل على الله ومطلعها :

قف العيس قد أدنى خطاها كلا لها

وسل دار سعدى إن شفاك سؤالها

ثم تقرأ قصيدته التى مدح بها ابراهيم بن المدبر ومطلعها :

وقوفك فى أطلالهم وسؤالها

يريك غروب الدمع كيف انهمالها

أقول : تقرأ هاتين القصيدتين فتجدهما متوافقتين لفظا ومعنى فى كثير من الأبيات . ولك أن تستنتج من هذا حكمك على ضمير البحترى الفاسد ، وحرصه على ابتذاذ الأموال بما تنكره مروءة الأخلاق .

ولننظر أولا إلى علاقته بالخلفاء لنعرف إلى أى مدى سفل الوليد ، فما صان عهدا ولا حفظ إلاًّ ، حتى مع المتوكل على الله ، ذلك الخليفة المعطاء الذى أدناه من مجلسه وأغرقه فى طوفان من حبائه ، واختاره نديماً على بساط الشراب إلى أن لقى حتفه وهو فى ندوته يجاذبه أطراف السمر مع الفتح بن خاقان ، وحين حلت الكارثة قام الوزير الشجاع بما يفرضه عليه واجب الشهامة والرجولة ففاضت روحه قبل سيده ، وفر البحترى إلى حمام مهجور بقصر القاطول فاختبأ فيه وبعد ذلك جاء يكذب على الناس فيقول فى اختلاق ذميم :

أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثنى الأعادى أعزل الليل حاسره

ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى

درى الفاتك المعجلان كيف أساوره

مع أن البحترى لو كان صادقا فى قوله لصرع لساعته كما صرع الفتح بن خاقان شهيد المروءة والوفاء !

ونحن لا نبالغ فى مؤاخذة البحترى على فراره هذا فلعله ممن لا يلقون بأيديهم إلى التهلكة . ولكننا نبالغ فى مؤاخذته على هجائه المتوكل بعد مصرعه برغم ما غمره به من خير عميم ، فقد قال فى مدح المنتصر قاتل المتوكل الماق :

حججنا البنية شكرا لما حبانا به الله فى المنتصر

تلافى البرية من فتنة أظلهمو ليلها المنكسر

ولما ادلهمت دياجيرها تبلج فيها مكان القمر

ولو كان غيرك لم ينتهض بتلك الخطوب ولم يقتدر

رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر

وآل أبى طالب بعدما أذيع بسربهمو فاذعر

ونالت أياديهمو جفوة تكاد السماء لها تنفطر

بقيت إمام الهدى للهدى تجدد من نهجه ما اندثر

ومعلوم أن المتوكل هو الذى غالى فى قهر آل أبى طالب ! !

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) الموشح للمرزبانى .

فهل يليق أولا أن يمدح قاتله ؟ ! وهل يليق ثانيا أن يمرض بهجاء ولى نعمته الأول فيقول إن الفتنة أظلت دياجيرها فى عهده وأن الهدى قد اندثر على يده ؟ إن هذا لغريب .

على أن البحترى لدناءة أصله ، وخسة طبعه لم يلبث أن قلب للمنتصر — ولى نعمته الثانى — ظهر المجن ، فهجاه هجاء مرا بعد مقتله ، ثم انقلب إلى الخليفة الجديد المستعين بالله يتزلف إليه ويمدحه حتى يستنزف أموال خزائنه فهو يقول متظاهرا بالولاء والإخلاص :

لقد نصر الإمام على الأعادى ... وأضحى الملك موطود العماد
أمير المؤمنين اسلم فقدما ... نفيت النفى عنا بالرشـــاد
تدارك عدلك الدنيا فقرت ... وعم ندالك آفاق البـــلاد

ولقد هبت فى عهد المستعين بالله زعازع شديدة تنبىء بزوال دولته نظراً لقوة أنصار المعتز بالله غريمه الأول ومنافسه الألد فرأى البحترى أن يحتاط لنفسه فأرسل للمعتز فى سجنه قصيدة تنبىء عن ولائه ، وكان قد قالها قبل ذلك فى حبس سعيد بن يوسف ولكنه كما قلنا — فيما تقدم — شاعر تجارى يتصرف فى شعره كما شاء ، ومما جاء فى هذه القصيدة :

جعلنا فداك ، الدهر ليس بمنفك
من الحادث المشكو والنازل الشكى
وقد هذبتك الحادثات وإنما
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك
على أنه قد ضم فى حبـــك الهدى
وأضحى بك الإسلام فى قبضة الشرك
أما فى نبى الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوسا على الجور والإفك
أقام جميل الصبر فى السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكأنى بالبحترى وقد خاف أن يعلم المستعين بالله نبأ هذه المراسلة فتقدم إليه بقصيدة عصماء مظهراً ولاءه ووفاءه قائلا فى ديباجة مشرقة وأسلوب سلس :

بقيت مســـلما للمسلمينا ... وعشـــت خليفة لله فينا
فقد أنســـيتنا بذلا وعدلا ... أبوّتك الهداة الراشـــدينا
أراد الله أن تبـــقى معانا ... فقدّر أن تسمى مســـتعينا
إذا الخلفاء عـدّوا يوم فخر ... سبقت سراتهم سبقاً مبينا
وقيناك المنون وإن حظاً ... لنا فى أن نوقيك المنونا

وبعد أن أمن على نفسه من ناحية المستعين أخذ يراسل المعتز بالله من جديد فهو يقول فى مخاطبة غلامه نائل :

ألا هل يرجع العيش لنا مثل الذى كانا
وهل ترجع يا نائل بالمعتز دنيـانا
عدمت الجسد الملقى على كرسى سليمانا
فقـد أصبح للمنة نقلاه وبقلانا

والجسد الملقى على كرسى سليمان هو المستعين بالله الذى قربه من مجلسه وغمره بنواله . ولما دارت الدوائر على المستعين وقتل فى قصره تحت جنح الظلام ، أخذ البحترى يضحك لآماله ، وسار من فوره إلى المعتز بالله معتمداً على ما كان بينهما من مراسلة خفية ثم مدحه بقصيدة طويلة عرج فيها على المستعين — ولى نعمته الثالث — فسلقه بلسان حاد ولصق به جميع المثالب حتى جرده من إنسانيته فهو يقول فى هجائه :

متى أسل الديان أن تصطفى له ... عرى التاج أو تثنى عليه عصائبه
وكيف ادعى حق الخلافة غاصب ... حوى دونه إرث النبى أقاربه
بكى المنبر الشرقى إذ خار فوقه ... على الناس ثور قد تدلت غباغبه
ثقيل على جنب الثريد مراقب ... لشخص الخوان يبتدى فيوائبه
إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم يبل
أضاء شهاب الملك أم كل ثاقبه
تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله ... فطوراً ينازيه وطوراً يشاغبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر ... وعرى من برد النبى مناكبه
وقد سر فى أن قيل وجّه مسرعاً ... إلى الشرق تحدى سفنه وركائبه
إلى دسكر خلف الدجاج ولم تكن
لتنشب إلا فى الدجاج مخالبه

ثم أخذ يكرر هجاءه ثانية وثالثة ورابعة وما ذاك إلا ليحوز قبول المعتز بالله ! فيا لضيعة الوفاء[1] ...

ولقد كان مصير من سبقه من الخلفاء فى هذا العهد الأحمر

(١) للبحترى فى مدح المعتز قصيدة مطلعها .
حذرت الحب لو أغنى حذارى ... ورمت الفر لو نجى فرارى
ولقد هجا فيها المستعين هجاء فاحشاً أستحى أن أنشر شيئاً منه على صفحات الرسالة ، ولا أدرى كيف تحملها أذن المعتز بالله حين أنشدها إياه؟!

الذى فاضت فيه دجلة بدماء الخلفاء ، حتى كان تعيين الخليفة حكماً عليه بالإعدام ، فهو ينتظر تنفيذه بالليل ، فإذا أخطأه ترقبه بالنهار ؟! ولعمرى أى خطأ شنيع وقع فيه المعتصم حين اصطفى هذه الشرذمة السافلة من غوغاء الأتراك ليدفع بها سلاطة الفرس على قلة شرهم — فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم !

وما إن عرف البحترى مصرع المعتز حتى توجه كعادته إلى غريمه الجديد ، يمدحه ويستدر عطفه. وما فى ذلك عيب ، ولكن العيب كل العيب فى تعريضه الشنيع بهجاء المعتز — ولى نعمته الرابع — محاولا أن يشفى بذلك غلة الممدوح ، ولو طال أمد البحترى إلى الآن لوجدناه يحرص على تمثيل هذا المنظر القبيح مع من يتعاقب على الدول من ملوك وخلفاء

وليت شعرى كيف عمى الخلفاء عن تلاعب البحترى بهم هذا التلاعب المقيت ، فلم يتنبهوا إلى غدره الفاحش ، فيقفلوا أبوابهم فى وجهه على أقل تقدير ، ولكنه الحظ الذى ستر مثالبه ، وأطبق العيون عن مخازيه ، فجعل كل خليفة يبتسم له ناسياً ما ارتكبه فى حق زميله السابق من غدر وعقوق ، ولقد كان أبو تمام أولى بهذه الحظوة لدى الخلفاء ، لما نعرفه من نبل أخلاقه ، وكرم خلاله ، إلا أن السعادة التى احتضنت البحترى قد ناصبت حبيباً العداء ! ! فقد مدح المعتصم بقصيدتين خالدتين ثم رجع ولم يظفر بطائل رغم شفاعة أحمد بن أبى دؤاد ! !

والحظ يقسم عاش بشر ما اشتكى بصراً وعمراً أكمها بشار !

على أن له مع أحمد بن الخصيب موقفاً كمواقفه مع الخلفاء سواء بسواء ، قال صاحب الموشح « حدثنى أحمد بن أبى طاهر فقال : ما رأيت أقل وفاء من البحترى ولا أسقط ، رأيته قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه ، فخلف عليه ليجلس ، ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غاضباً عليه ، وأخذ له منه مالا فدفعه إليه ، ولما نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد كرمه هذا رأيت البحترى ينشده

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بانكه الردى وإبطاله
قد أسخط الله بإعزازه الد نيا وأرضاها بإذلاله
ياناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدم والمال إن نظرت فى سائر أحواله
والرأى كل الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله

ثم قال ابن طاهر كأن ابن الملجة فقيه يفتى الخلفاء فى قتل الناس ! نزهه الله »

هذه علاقة البحترى المخزية مع أولياء نعمته ، ولقد كان فى حاجة إلى من يذكره بقصة صعصعة بن غالب حين بلغه موت الوليد ابن عبد الملك ، فقال : لعنه الله وأخزاه ! لقد سبنى مرة أمام حشمه وخوله ، وكان والده غالب حاضراً فقال : يابنى لقد رفعت من ذكر الوليد إذ ذكرت سلطانه عليك ، وخفضت من شأنك إذ نهبتنا إلى منزلتك لدى الخليفة وأنت سيد قومك ، فلا تفضح نفسك بهجاء رؤسائك أمام الناس ! ! »

(يتبع) محمد رجب البيومي

إدارة الهندسة الفروية بالمنوفية

تعلن عن وجود وظيفتين خاليتين لمهندسين من حملة بكالوريوس كلية الهندسة القسم المدنى أو العمارة أو الفنون الجميلة العليا قسم العمارة . وأيضاً عن وجود ثلاث وظائف خالية لمساعدى مهندسين من حملة دبلوم الفنون والصناعات أو الهندسة التطبيقية العليا إن رغبوا .

والتعيين على اعتمادات الباب الثالث بعقود مؤقتة بأول مربوط الدرجة السادسة للمهندسين وبأول مربوط الدرجة السابعة لمساعديهم مع إعانة الغلاء المقررة وتقدم الطلبات على الاستمارة ١٦٧ ع. ح لغاية آخر سبتمبر سنة ١٩٤٦

٥٩٦٤